

(٨)

من كلمات التأبين كلمة

الأستاذ الدكتور / عبد الستار الحلوجي*

لست أرثيك ولكنى أناجيك. وكيف أرثيك وأنت تعيش فى قلبى وتعشش فى فكرى ووجدانى؟ كيف أرثيك وأنت لم تفارقنى ولن تفارقنى ما حيت؟ كيف أرثيك وأنت لم تمت فى نفسى ولن تموت؟

للمرة الثانية فى حياتى أحس بالضياع. كانت المرة الأولى يوم فقدت والدى رحمه الله، وكانت المرة الثانية يوم نعى إلى أستاذى وصديقى الدكتور الشنيطى وأنا بعيد عن أرض الوطن، فتمنيت لو كنت إلى جواره فى ساعاته الأخيرة. تمنيت لو شاركت فى تشييع جنازته وتلقى العزاء فيه كواحد من أبنائه.

وهأنذا أسترجع ذكرياتى معه وأغرق فى بحار الحزن على فراقه، وتعود بى الذاكرة إلى ثلاثين عاما مضت حين بدأت أسمع عنه، وكان وقتها كبيراً بكل المقاييس، وكنت صغيراً بكل المقاييس أيضاً. وقدّر لى أن ألتقى به وأن أعمل تحت رئاسته وأن أحتك به احتكاكا مباشرا. وكان طبيعياً أن أختلف معه وأن اصطدم به فى بعض الأحيان، ولكنى لم أفقد حبى له واحترامى إياه فى يوم من الأيام.

*عالم الكتاب.. ع ٤٩ (يناير / فبراير / مارس / ١٩٩٦).. ص ١٨ - ٢٠

أذكر أنه في أول عهدي به كلفني بعمل لم أقتنع به فلم أنفذه، وكان باستطاعته يومها أن يحيلني إلى تحقيق، وأن يوقع على ما يشاء من عقوبة ولكنه لم يفعل واكتفى باستدعائي لمكتبه، وسألني بفضب: ماذا تفعل حين تختلف مع أريك؟. فأدرت قصده وأجبتة قائلا: أفعال ما أفعله معك، أسمع كلامه بكل احترام ولكني لا أنفذه. فضحك وقال لي بحنان شديد: كم هي ناشفة رأسك يا ولدي، وربت على كتفي وانصرفت، وقد تعلمت منه درسا من الدروس الكثيرة التي استفدتها منه.

وذاذ يوم من أيام فبراير سنة ١٩٦٩ جلست أمامه ليناقتني في رسالة الدكتوراه. ومن يومها أصبح بالنسبة لي أستاذا وأباً، ولم يلبث أن أصبح صديقا بعد أن تزامننا سنين عدداً في قسم المكتبات والوثائق وفي الماجستير والدكتوراه، وما أذكر أني جلست إلى جواره في لجنة مناقشة إلا أحسست بالضآلة أمام هذا الهرم الشامخ. وكثيرا ما كنت أذكره بل وأعلن على الملأ أنني منذ أكثر من عشرين عاما جلست معه مجلس التلاميذ من الأستاذ، ورغم مرور هذه السنين الطوال، مازال الأستاذ أستاذا ومازال التلميذ تلميذا.

كان من يومه خيراً سمحا إلى أقصى الحدود. ولعل كثيرين من شباب المكتبيين لا يعرفون أنه استأجر في الخمسينيات مكتبا في وسط القاهرة لعمل أول كشاف تحليلي الصحف والمجلات المصرية على نفقته الخاصة، وأن هذا المكتب كان ملاذاً لكل من تضيق بهم سبل الحياة من تلاميذه ومحبيه. ولعل كثيرين أيضا لا يعرفون أننا كنا أحيانا نعاتبه على طبيته الزائدة وعلى سخائه الشديد مع تلاميذه، حين يناقش رسائلهم أو يقيم إنتاجهم العلمي، فلم يكن يرد علينا أكثر من ابتسامة صافية تشعنا بالخجل، ويتحول وجهه المشرق إلى مرآة نرى فيها أحجامنا الحقيقية بالقياس إلى قامته العملاقة، وكثيراً ما كنت أعجب حينما أرى بعض من تتلمذوا عليه وجلسوا على موائده وسبحوا في بحار فضله، وهم يتعاملون معه كما يتعاملون مع أندادهم، دون مراعاة لفارق سن أو فيض علم أو مزيد فضل. وكنت أختلس النظر إلى تعبيرات وجهه فلا أرى غضبا ولا ثورة، ولا حتى مجرد امتعاض. ولم يكن لذلك من تفسير عندي سوى أن فعل الخير كان سجية وطبيعة فيه، وأنه لم يكن ينتظر من أحد جزاء ولا شكورا، ولم يكن يتوقع فيه من الناس اعترافا بمعروف أو رداً لجميل.

وأذكر أننا حين فكرنا في إنشاء جمعية للمكتبيين في مصر كان طبيعياً أن نختار لرئاستها شخصاً نعتبره أباً للتخصص وراعياً له. شخصاً يلتف حوله الجميع ويجلونه ويستحون منه وتذوب الخلافات القائمة بينهم عند قدميه. ولم تجتمع تلك الصفات إلا في أستاذنا الدكتور الشنيطى الذى لم يختلف حوله اثنان؛ فهو شيخ المكتبيين المصريين والعرب بلا منازع، والكل عنده أبناء وأحفاد، والكل أمامه تلاميذ ومريدون.

كان أكبرنا سناً وأرجحنا رأياً، وكان فى الوقت نفسه أشدنا نشاطاً وأكثرنا حرصاً على المهنة وإدراكاً لطبيعة التخصص، ومتابعة لما يطرأ عليه من تطورات عالمية. وما أثرنا قضية إلا وجدنا عنده الرد الشافى والإجابة المقنعة والخبر اليقين. وما ذكرنا كتاباً أو مقالا فى حضرته، إلا استخرجه من مكتبته الخاصة، وأتى لنا فى اليوم التالى بنسخة مصورة منه، دون أن يتقاضى أى مقابل عن هذا التصوير مهما كان حجمه.. وأذكر أنه طلب منى كتاباً من عدة أجزاء، فقلت فى نفسى إنها فرصة سانحة لكى أرد له بعض الجميل. وصورت له الجزء الأول وأعطيته له، وتعللت بأننى عثرت على مكتب يقدم أفضل تصوير بأقل سعر، وأنى سأحاسبه عندما أفرغ من تصوير بقية الأجزاء. فإذا به يقول لى: لا عليك من ذلك، فعندى تصوير لا يكلفنى شيئاً من الجهد أو المال.

وظل - رحمه الله - حتى آخر لحظة من حياته يرمى تخصص المكتبات والمعلومات ويدافع عنه فى كل المحافل العلمية، وعلى جميع المستويات الإدارية والفنية. وكان حلمه الكبير أن يشهد مولد كلية لعلوم المعلومات فى رحاب جامعة القاهرة. ويشاء الله أن يشكل مجلس كلية الآداب فى آخر جلسة حضرتها لجنة خماسية لدراسة هذا الموضوع. وكان طبيعياً أن يكون الدكتور الشنيطى على رأسها. ولكن القدر لم يمهل حتى يرى الحلم وقد تحقق، والبذرة التى غرسها وقد أنبتت. فبعد عدة لقاءات ذهب ثلاثة من أعضاء اللجنة فى سفرة قصيرة، ولم يكن أحد منهم يدرى أن الشيخ الجليل مقبل على سفر طويل وأنه سيمترك حلمه أمانة فى أعناقهم، وأنه آن له أن يستريح من هذا العبء الثقيل الذى حمله سنين طوالاً، وأن لهم أن يتولوا حمله واستكمال المسيرة من بعده على هدى من فكره وبصيرته.

ماذا أقول وقد صدمتنى المفاجأة؟ ماذا أقول وأنا الذى لم يخطر ببالى قط أن يأتى يوم

أفقد فيه الأب والأستاذ والصديق وأنا بعيد عنه وعن أرض الوطن، وأن يتحول النموذج والقُدوة إلى سطور تنعاه في صفحة الوفيات؟

وأسأل نفسي في حسرة: ماذا سيكون شكل القاهرة في عيني وطعمها في حلقي، حينما أعود إليها فلا أجد فيها من أستاذي ومعلمي غير أطيايف من الذكريات يموج بها صدري وتترأى أمام ناظري؟ ماذا سيكون شكل الكلية التي تعودت أن ألقاه فيها حينما أعود إليها وأبحث عنه فلا أجد له لأنه مضى إلى هناك، إلى المصير المحتوم الذي سبقه إليه أبى منذ بضع سنين فانهدم برحيله الصرح الذي أواني، والجدار الذي كنت ألوذ به واحتفى فيه كلما ضاق بي الصدر أو أحزنتني أمر، أو ألم بي مكروه؟ واليوم ينهدم جدار آخر، وأجدني وحيدا في صحراء الحياة، أواجه وحدي أعاصيرها وأتجرع وحدي كنوس همومها بعد أن رحل الأعبة وأقفرت الواحة الظليلة التي كنت آوى إليها فراراً من وطأة القَيْظ ولفح الهجير.

ولست أدري لماذا لم أودعه قبل السفر؟ لأنني لا أحب مواقف الوداع ولا أقوى على احتمالها؟ أم لأنني لا أحب أن يكون بيني وبينه وداع؟

إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإن الفؤاد ليجزع، لكنها إرادة الله التي لا راد لها، ومشيبته التي لا معقب عليها والنهية التي تنتظرنا جميعا. ولا يصح أن نقول إلا ما يرضى الله فإننا لله وإنا إليه راجعون.

ويا رحمة الله اهبطي من سبع سماواتك على كل حبيب ضمه الثرى - وكم ضم الثرى من حبيب - وعلى كل غالى رحل من عالم الفناء إلى دار البقاء، وما أكثر الذين سبقونا إلى هناك. وصدق الله العظيم إذا يقول: «كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن الدار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور».